٢

أثر الحرص على السنّة النبوية في ابتكار مناهج علمية جديدة

■ بقلم الدكتور محمد مختار المفتي

منهج السنة في تحقيق المعرفة:

كانت السنة النبوية في مجموعها، مصدراً رئيساً لمعرفة التعاليم الإسلامية، وإن الأدلة التي تدل على ذلك ثابتة وقاطعة بنصوص من القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(٢)، وقوله عز وجل: ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾(٣). ومن هذا المنطلق فلا حاجة للمجادلة فيها والرد عليها لأن أصحابها قد اعتمدوا على حجج العقل والنقل معاً، وقد تكفل بحفظها علماء متخصصون من السلف والخلف فلا حاجة لتكرار الكلام فيه.

وفي الحقيقة أن أي علم من العلوم، وفرع من فروع المعرفة في تاريخ الإنسانية كلها، لم يتوافر له من التوثيق والتدقيق في البحث والتثبت من صحة النصوص مثل ما توافر للسنة الشريفة، وإنما يتجاهل هذه الحقيقة من لم تتح له معرفة الجهود التي بذلها علماء الحديث قديماً وحديثاً- كما تكلمنا عنه سابقاً- للتثبت من صحة الرواية عن النبي ﷺ، والتمحيص لأحوال الرواة، والتأكد من صحة الحديث

متمسكين بقواعد منهج صارم في السند والمتن جميعاً.

وعلى الرغم من ذلك فإن قضية فهم السنة النبوية قضية جوهرية لا تقل أهمية عن قضية التثبت من صحة المرويات، وكيفية الاحتجاج بالسنة النبوية، والالتفات إلى أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقاريره التي قد تكون صادرة منه على سبيل التبليغ أو على سبيل الإمامة أو على سبيل القضاء، إلى غير ذلك مما فصل القول فيه علماء أصول الفقه وكثير من المحدثين(٤).

ولكن القضية الواحدة التي نعرض لها في هذا البحث، هي كيف كانت السنة المطهرة قد وجهت إلى منهج أصيل مهم لتحقيق المعرفة في جميع نواحيها؟ ألا وهو المنهج السمعي الذي يمثله البلاغ القرآني والبيان النبوي، وذلك لأنه الطريق المتميز في الاعتماد على هذا المنهج الذي يثمر المعارف الصادقة واليقينية في المجال الفكري الذي ساد في حضارة الإسلام نفسها، وبهذا المنهج صارت السنة النبوية وبجانبها القرآن الكريم مصدرا المعرفة في الثقافة الإسلامية.

أولاً: المنهج النبوي البياني:

إن هذا المنهج ينبثق من دستور القرآن الكريم وهو كلام الله تعالى، وكتابه الذي أحكمت آياته، وبلاغه المبين على لسان رسوله محمد ﷺ إلى العالمين. وهو وحي الله تعالى إلى رسوله، ومعجزة التحدي وآية صدق هذا الرسول، ويعتبر القرآن أرقى مستويات المنهج السمعي الذي لم يكن هناك مثله، سواء في الإعجاز المتحدي أو في حجية المعجزة، أو في توثيق الرواية، أو في عقلانية الدراية، أو التعهد الإلهي له بالحفظ، وبعدم تبديل ما فيه من كلمات، ولا يأتيه الباطل من أي اتجاه وغير ذلك.

وتوضيحاً لذلك فقد جاءت في القرآن آيات كثيرة مثل قوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**(٥)، وقوله سبحانه: **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾**(٦)، وقوله عز وجل: **﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾**(٧)، وقوله جل وعلا: **﴿وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾**(٨) وغيرها من

الآيات.

وعلى الرغم من تطاول القرون التي بلغت الخامس عشر حتى الآن، فإنها تشهد على صدق هذا الوعد الإلهي بالحفظ وعدم التبديل، ونفي الباطل، ودائماً تقوم الشواهد على القرآن الكريم في مصادر المعرفة أعلى درجات الصدق والثقة واليقين، وذلك بالإضافة إلى دلائل صدقه المستمدة من وجوه إعجازه الأخرى الكثيرة، ولا زال بتعاليمه يقف شامخاً في وجه الأعاصير.

ولقد كانت مهمة الرسول ﷺ هو البلاغ لهذا المنهج الذي بلغ قمة اليقين المعرفي، ويمكن تلخيص هذه المهمة في الأمور الآتية:

١- إن البلاغ لهذا القرآن الكريم يمثل مهمة جاءه الأمر بها في كثير من آياته البينات باستعمال هذا اللفظ نفسه "البلاغ" ومشتقاته، أو بألفاظ تحمل مضمون إبلاغ هذا القرآن الكريم إلى العالمين. مثل قوله تعالى: **﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾**[٩]، وقوله سبحانه: **﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾**[١٠].

ولقد نهض الرسول ﷺ بهذه المهمة، فبلغ الرسالة وأشهد على ذلك الله والناس أجمعين.

٢- وإن البيان لهذا البلاغ القرآني هي المهمة الثانية من مهام الرسالة، وذلك بتفصيل مجمله، وتفسير إشاراته، والتخصيص لعامه، والتقييد لمطلقه، ووضع الضوابط المعينة على التمييز بين محكمه ومتشابهه، وأيضاً بتوقيت الشعائر والفرائض والمناسك، وبيان مقاديرها وشروطها وأركانها وأنصبتها ومصادرها ومصارفها وهيئاتها وغير ذلك.

ولقد أنجز الرسول ﷺ هذه المهمة وهي القيام بما فرضه الله عليه تنفيذا لقوله تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**[١١]، وقوله سبحانه: **﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾**[١٢].

٣- وإن التجسيد العملي للرسالة الإلهية عقيدة كانت أو شريعة وقيماً وأخلاقاً، هو التجسيد العملي لها بالتجربة النبوية، والتطبيق النبوي لمعالم المنهج الإسلامي، وهو الذي وضع الفكر القرآني

في الممارسة والتطبيق، وأحال المنهج الرباني بناءً حيوياً في الحياة، وبهذا فقد تخلقت من حوله إبداعات المسلمين المصطبغة بصبغته الربانية في شكل علوم وفنون ومعارف وأبنية مدنية، وتلك هي التي مثلت حضارة الإسلام.

فالإسلام لم ينحصر في الرسالة المحمدية عند حدود البلاغ القرآني، ولا البيان النبوي النظري لهذا البلاغ القرآني فحسب، وإنما كان عبر التجربة النبوية بناءً حيوياً تجسيدياً في الممارسة والسلوك والدولة والعلاقات وغيرها. فكان البالغ الذي جسدته السنة النبوية بالبيان النظري والتجسيد التطبيقي كياناً حياً يعيش به المسلمون، ولذلك كانت السنة النبوية بحكم كونها البيان العملي لهذا البلاغ القرآني سواء في الفكر أو التطبيق، تعتبر مصدراً للمعرفة اليقينية في كل ميادين ونواحي هذا البلاغ القرآني.

وحقاً أن إطار هذه السنة - وهي مبينة للبلاغ القرآني- يحتم أن يكون لها في هذا البلاغ معنى أو مبنى، وهي بذلك قد غدت وتعدو المصدر النبوي لبيان البلاغ الإلهي، سواء أكان بلاغاً هذا البيان النبوي أو اجتهاداً نبوياً أقره بلاغ القرآن الكريم نفسه.

وبهذا المعنى لعلاقة السنة النبوية بالقرآن الكريم وفي إطار موقفها من المنهج السمعي للقرآن، فإن المسلم يلتمس في هذه السنة ويتخذ منها مصدراً في جوانب شتى ونلخصها فيما يأتي:

١- قد تكون السنة النبوية مصدراً لمعرفة أسباب نزول البلاغ القرآني والوحي الإلهي على رسوله ﷺ، بما يمثله من علم لتفسير القرآن، ووعي بحكمة التشريع الرباني وعون على مسايرة هذا التشريع وملائمته للتطور مع تغير الزمان والمكان.

٢- وقد تكون مصدراً لمعرفة التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحربي والأدبي وغير ذلك للتجربة الإسلامية في عصر صدر الإسلام، وهي التي حولت البلاغ القرآني والبيان النبوي إلى كيان اجتماعي حي ومجتمع إنساني وبناء حضاري عائش.

٣- وقد تكون مصدراً لأبنية وهياكل الدولة الإسلامية عبر القرون التي أقامها المسلمون لحماية الدعوة الإسلامية ونصرتها، ونشر الدين الإسلامي وتثبيته، وكما أنها تمثل نماذج للواجبات المدنية التي اقتضتها الفرائض الدينية، وبذلك قد اكتسبت صبغة الواجبات الإسلامية وأهميتها، حتى ولو لم يرد التشريع

بفرضيتها صراحة في البلاغ القرآني.

٤- وقد تكون مصدراً للتشريع النبوي والتراث القانوني في السنة النبوية الشريفة، سواء ما كان منه تفصيلاً لمجمل القرآن، أو ما كان منه اجتهاداً فيما لا وحي فيه. وإلى جانب ذلك فهي أيضاً تمثل المصدر للتمييز في هذا الاجتهاد النبوي، بين ما أقره الوحي بالنص الصريح عليه أو بالسكوت عنه وبين ما نزل الوحي مصوباً له أو معدلاً.

٥- وقد تكون مصدراً للتمييز بين الدين الثابت الذي يجب فيه الإتباع للمنطوق والمفهوم من خلال الممارسات النبوية، وبين المتغيرات الدنيوية التي يجب فيها التزام المقاصد والأهداف دون التطبيق حرفياً، وكذلك للتمييز بين الدين الثابت وبين المتغيرات من الأعراف والعادات والتقاليد وغير ذلك.

بالإضافة إلى أنها هي المنهج الفاعل في أي جهد جاد من أجل التقدم والتجديد والتقويم لحياة الأمة، ومن هنا تصبح السنة النبوية الكاشفة عن معالم منهج النبوة مصدراً وفيراً للمعرفة المجددة للفكر الإسلامي ولواقع المسلمين جميعاً، وهذا عن المنهج البياني للسنة النبوية الذي يمثل مصدراً ثميناً للمعرفة في مواكب حياة الأمة الإسلامية.

ثانياً: كيفية تحقيق هذا المنهج للمعارف:

هناك كثير من النماذج الشاهدة لهذه المعارف من خلال البلاغ القرآني الذي يشير إلى القضايا المختلفة، وقام بتفصيله وتفسيره البيان النبوي، **وهذا بعض من تلك النماذج:**

١- قضية بدء الخلق التي يشير إليها القرآن الكريم، حيث جاءت إشاراته تتحدى الطواغيت وعبدة غير الله تعالى مثل قوله تعالى: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾**[١٣]، وقوله سبحانه: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين..﴾**[١٤]، وقوله عز وجل: **﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾**[١٥].

وإذا كانت هذه الإشارات القرآنية إلى بدء الخلق هي اليقين الكاشف للمعرفة الإنسانية عن هذا الأمر الذي لم يشهده سوى الخالق سبحانه وتعالى، فإن السنة النبوية قد مثلت مصدر المعرفة الذي كشف لنا طرفاً من الحديث والعلم عن صورة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم. فهذا حديث عمران بن حصين، قال

الرسول ﷺ: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض"[١٦]، ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه"[١٧].

فمن هذا المصدر النبوي وتبعاً للمصدر القرآني، قد عرفنا ونعرف طرفاً من خبر بدء الخلق الذي كشف عن تصور الجلال الذي اختص به خلق الإنسان، حتى لقد أمر ملائكته بالسجود له، حيث قال تعالى: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾**[١٨].

٢- قضية أطوار خلق الإنسان وخاتمته، حيث أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ❖ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ❖ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[١٩].

ولما كانت هذه الإشارات لإخبار الناس وإعلامهم عن أطوار خلقهم، وهي الأمور اليقينية التي كشف القرآن عنها للمعرفة الإنسانية، فهناك أيضاً إخبار وإيضاح من السنة النبوية عن هذه الأطوار، حتى تكون أكثر وضوحاً وتأكيداً على صحة هذه المعرفة. فهذا حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فو الله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، ليعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[٢٠].

فمن خلال هذا الإخبار النبوي وإعلامه عن أطوار الخلق الإنساني مؤكداً للإخبار القرآني الذي كشف الله عنها، "قد زود المعرفة الإنسانية بحقيقة مفادها أن الجنين يتقلب خلال مائة وعشرين يوماً داخل بطن أمه في ثلاثة أطوار ثم ينفخ فيه الملك الروح في الطور الرابع منها،

وزاد عليها الإخبار القرآني ثلاثة أطوار أخرى حتى أصبحت سبعاً"[٢١]، من بدايتها إلى أن يلقى الإنسان ربه سبحانه وتعالى، ولا شك أنه كسب كبير للمعرفة الإنسانية.

٣- قضية الإخبار عن الأمم السابقة والحضارات البائدة حيث جاءت الإشارات في القرآن عن هذه الأمم من أمثال؛ ذي القرنين، وعاد، وثمود، وأهل مدين، وأخبار الأنبياء والرسل السابقين وغيرها، في مثل قوله تعالى: **﴿ويسألونك عن ذي القرنين، قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ❁ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا﴾**[٢٢]، وقوله سبحانه: **﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾**[٢٣]، وغيرها من الآيات البينات.

وإذا كانت هذه الإشارات التاريخية هي الأمور المتيقنة من ذلك التاريخ، فإننا قد وجدنا في السنة النبوية طرفاً من المعارف، فيها بعض التفصيل لما في البلاغ القرآني من إشارات لذلك التاريخ. وهذا مثل في قصة أيوب عليه السلام التي فصلتها السنة النبوية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "بينا أيوب يغتسل عرياناً فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك ولكن لا غنى بي عن بركتك"[٢٤].

٤- قضية واقع الجاهلية التي أخرج الإسلام أهلها من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام، مثل قوله تعالى: **﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾**[٢٥]، وقوله سبحانه: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[٢٦].

فإن الواقع يمثل جماعة بشرية غلبت عليها الأمية، وكانت فقيرة في أدوات التدوين لتاريخ مجتمعاتها من حيث؛ عاداتها وتقاليدها وأعرافها، وفي أديانها وأوثانها ومناسكها، وفي أحيائها القبلية وعلاقات قبائلها بمن جاورهم من الدول والشعوب، وفي مكانة المرأة بها، وأنواع الزواج وعلاقات الرجال بالنساء في الحلال والحرام، وفي أنماط الإنتاج وعلاقاتها بمصادر الرزق وغيرها.

فلا شك أن هذا الواقع الجاهلي لا سبيل إلى فهم عمق التطور الإسلامي وجذور الإنجاز الإسلامي إلا بتصوره، وذلك باعتباره ميدان هذا الانجاز وسبباً في مجيء البناء الحضاري الإسلامي على

هذا النحو الذي جاء عليه، والحق أن هذا الواقع لن نجد مصدراً من مصادر المعرفة والتعريف له أغنى وأكثر من سنة الرسول ﷺ.

وكما أن البيان النبوي وتجسيده للبلاغ القرآني في هذه القضية قد جعل الرسالة المحمدية- أمة ودولة ومجتمعاً ونظاماً وحضارة- تهتدي بالمنهج الرباني وتصطبغ بصبغة الله تعالى، حيث أنها التاريخ الأدق لمجتمع مصدر الإسلام، فيها وصف واقعه، ونصوص دستوره وقانونه، وعاداته وأعرافه، وفيها صور نشاط إنسانه في كثير من ميادين الحياة، الخاصة منها والعامة، وفيها أوسع وصف لدولة الإسلام الأولى عن رعيتها وحدودها، وطرائق العيش وسبل التكسب فيها، وغزواتها وفنون قتالها وفتوحاتها، وما حدث فيها من انتصارات وانتكاسات(٢٧)، فهي أوثق وأغنى مصادر المعرفة للقارئين والباحثين جميعاً.

٥- قضية استخلاف الإنسان في هذا العالم، حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان خليفة في استعمار هذا العلم الذي يعيش فيه، وعلى امتداد الآفاق التي يبلغه سلطانه. فإن البلاغ القرآني قد حث الإنسان على النهوض بمهام الإعمار هذه، حيث أنها قد جاءت آياته دائماً قارنة الإيمان العامل بالعمل المؤمن، مثل قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾**(٢٨)، وقوله سبحانه: **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾**(٢٩).

وإذا كان هذا الاستخلاف هو ما أراده الله، وهذا هو حديث البلاغ القرآني عن عمارة العالم الإسلامي بالإيمان والعمل المؤمن، فإن البيان النبوي أو السنة النبوية زاخرة بالمعارف التي تمثل الزاد الذي لا يعد ولا يحصى في هذا المجال، فلا شك أن أحاديث العمل والمأثورات التي حثت على إحياء الأرض وعمارتها كانت متوافرة ومتنوعة، حيث لا حاجة لذكرها جميعاً في هذا المقام.

وعلى كل فإن تجربة البناء الاجتماعي والاقتصادي لدولة الإسلام الأولى هي التجسيد التطبيقي أو العملي لهذا البيان النبوي في هذا المجال. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، يقول الرسول ﷺ: خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح"(٣٠)

بل إن تعظيم العمل الإنساني في السنة النبوية يبلغ المقام الرفيع، حتى يتحدث عنه الرسول ﷺ في حديثه الذي يرويه أنس بن مالك: "إذا قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل"[٣١]. تلك إشارة إلى ذخائر المعارف التي قدمتها لنا السنة النبوية، مصدراً للمعرفة في هذا المجال.

٦- قضية البعث والحساب والجزاء في اليوم الآخر، حيث أن العقيدة الإسلامية تجعلها ركناً من أركان الإيمان، وقد أشار البلاغ القرآني إشارات عديدة إلى البعث بمثابة الحجة على منكريه، مثل قوله تعالى: **﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم، قال أليس هذا بالحق، قالوا بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾**[٣٢] وقوله سبحانه: **﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾**[٣٣]، وقوله عز وجل: **﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾**[٣٤].

وإذا كانت الإشارات إلى حديث البلاغ القرآني عن قضية البعث وخبره، فإن معارف السنة النبوية عن أنباء البعث وصوره وأحوال الناس فيه، هي أيضاً المصدر المعرفي الذي يجد فيه المسلم ما يقرب صورة هذا الخبر الغيبي إلى العقل المحدود لمخلوق عالم الشهادة، تتوجه إليه هذه الرسالة الإلهية بالبلاغ والبيان كما قال الله تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[٣٥].

وتأكيداً على هذا فهناك مثلاً في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حيث يقول الرسول ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ المسبل[٣٦]، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.."[٣٧]. وكما وجدنا أيضاً الخبر عن الجزاء والشفاعة يوم القيامة في حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد أسودوا، فيلقون نهر الحيا أو الحياة (شك مالك من أحد رجال السند) فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية؟.."[٣٨].

وهذا بالإضافة إلى ما ضمت كنوز السنة النبوية من صور تقرب للذهن الإنساني قدر الإمكان: أحوال النفخ في الصور، وأحداث ما بين النفختين، وصورة الحشر ومكانه، وصورة الناس فيه، والحساب والميزان، ومن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وغير ذلك من الأنباء والأخبار والمعارف المقربة والميسرة والمفسرة لإشارات البلاغ القرآني لهذا الخلق الذي يستحيل على العقل البشري إدراك كنه حقائقه ومضامينه.

كانت هذه بعض الأمثلة من النماذج التي تشهد على أن المنهج البياني للسنة النبوية قد تمكن من تحقيق المعارف الإسلامية، وعلى صدق وفائها بهذه المهمة في الفكر الإسلامي وفي حضارة المسلمين.

وخلاصة القول: إن تحقيق الإنسان المسلم للمعارف العديدة من المصادر والميادين المختلفة بوساطة السنة النبوية، قد يفتح للعقل الإنساني الجديد والعديد من الآفاق، وذلك دون أن يحد من قدرات وإمكانات وآفاق هذا العقل أو يقيد من طموحاته.

وإن هذا المنهج الإسلامي الذي يجعل البلاغ القرآني وبيانه النبوي مصدرا للمعرفة اليقينية في ميادين متعددة، قد يكون في بعضها مجرد دافع للعقل على النظر وحافظ له من تجاوز الحدود، وقد يكون في بعضها المعين المؤازر، ويكون في أخرى المصدر الوحيد لمعرفة ما لا مجال للعقل فيه. وبهذا المنهج رأينا السنة النبوية مصدراً للمعرفة التي تقوم- بجانب البلاغ القرآني- بإثراء معارف الإنسان المسلم، وإغناء النظام الفكري لحضارة الإسلام.

❖ الخاتمة:

وختاماً لا شك أن القارئ لهذا البحث يكتشف كيف أن السنة النبوية الشريفة - بعد القرآن الكريم- قد أثرت تأثيراً قوياً على مسار الفكر الإسلامي، وتوجيه الحضارة الإسلامية في مختلف نواحيها وتجلياتها، تلك الوجهة التي صارت عليها منذ انطلاقتها الأولى وعبر القرون الأولى إلى يومنا هذا.

وكل العلوم الشرعية التي أبدعها المسلمون ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسنة النبوية الشريفة وعليها تتأسس، فالمفسر لكتاب الله العزيز لا بد أن يرجع إليها لفهم كلامه سبحانه، كما يرجع إليها الفقيه والأصولي لاستنباط الحكم الشرعي المناسب، والداعية المربي لا غنى له بالاقتباس من سنة وسيرة الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آيات

ربهم، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وبهذا وغيره يتأكد جلياً بأن السنة النبوية الشريفة، هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم؛ المصدر الذي كان له تأثيره الواضح على مختلف علوم المسلمين وإبداعاتهم في المجال التشريعي وفي المجال السياسي وفي مجال التربية والتعليم، وفي غيرها من المجالات الأخرى.

ولقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم قدر رسول الله ﷺ وعلموا أنه لا ينطق عن هوى وإنما هو وحي يوحى، ولم يجربوا عليه كذباً ولا علموا عنه رذيلة قبل بعثته ﷺ .. علم الصحابة كل ذلك فسارعوا إلى أقواله يحفظونها، وإلى أفعاله وسيرته يقتبسون منها القدوة والمثال، وإلى تقريراته يميزون بها الحق من الباطل.

فعلوا هذا لأنهم علموا أن الإيمان الحق لا يمكن أن يتحقق في نفوسهم إلا بالخضوع لأوامر النبوة، وخصوصاً في حياتهم كلها، ثم لا يجدوا في هذا الخضوع أدنى حرج أو ضيق، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾** النساء: ٦٥ .

وجعل الله طاعة رسوله الكريم مقرونة بطاعته سبحانه فقال: **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾** النساء: ٥٩ .

بهذه الآيات وغيرها كان القرآن الكريم يحدد للصحابة رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين، كيف يقدرون السنة النبوية الشريفة، وكيف يتعاملون مع نصوصها الخالدة.

وهذا التقدير لسنة المصطفى ﷺ هو الذي حفظ لنا نصوص هذه السنة إلى اليوم، ولم تنل سير الأنبياء والرسل ولا سير الحكماء والحكام الذين كانوا قبل الإسلام مثل هذه العناية ولا أقرب من ذلك، وصدق الله العظيم حين قال: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** الحجر: ٩ .

ولا شك أن حفظ القرآن لا يتحقق كاملاً إلا بحفظ السنة النبوية الشريفة لأن السنة هي المبينة للكتاب، الموضحة لمراد كلام الله: تفصل ما أجمله، وتقيد ما أطلقه، وتخصص ما عممه. ولا يمكن لعاقل أن يفهم الإسلام وحضارته والفكر المنبثق عنهما إلا إذا فهم السنة وفهم ذلك التأثير العميق الذي كان لها على مختلف نواحي الحياة الفكرية للمسلمين.

لهذا فإن هذا البحث- كما سيتبين لقارئه- قد حاول ملامسة هذا التفاعل الذي حدث بين حياة المسلمين وواقعهم مع نصوص السنة طيلة القرون الثلاثة الأولى للحضارة الإسلامية.

كما بينت مدى اهتمام السنة النبوية الشريفة بالعمل والتشجيع على بذل الجهد لتحقيق العمل المتقن. لأن العمل في الإسلام يسموا إلى مستوى العبادة إذا كان صاحبه مؤمناً وغرضه شريفاً.

وخلاصة القول: إن السنة النبوية الغراء قد أكدت اهتمامها وعنايتها البالغة بوضع معالم الأخلاق الإسلامية الفاضلة ومكارمها، وأن هذه العناية والاهتمام قد تجلت خلال شخصية الرسول ﷺ نفسه وبرسالته الخالدة، وبأدبه الإلهي، وبأخلاقه القرآنية المجسدة في سننه العملية وسيرته التطبيقية. وأن أول ما اهتمت به السنة هي الدعوة إلى تحصيل العلوم والمعارف، امتثالاً لما بدأه الله تعالى في القرآن الكريم في توجيه الإنسان وعقله إلى التعلم والقراءة والتطلع إليها.

وخلاصة القول: إن دور السنة النبوية واضح في مجال الفكر الإسلامي وتطوراته، وكان أبرز الأثر فيه هو تحرير الفكر الإنساني وإطلاق العقل من قيوده، ورسم الخطوط العامة للفكر الإسلامي في حركته، وفتح الطريق أمام الاجتهاد والتفسير والاستنباط ثم طرأ التطور والانفتاح على الثقافات الإنسانية والعالمية، وبدأت حركة الترجمة وتوسعت آفاق الفكر الإسلامي وأصبحت حركة ضخمة، فظهرت مدارس عديدة مثل؛ مدارس الفقه، والعقائد، وتحقيق السنة، فاللغة والأدب، والكتابة التاريخية وغيرها.

كما بينت كيف أن الحرص على سلامة وصحة النص الحديثي قد دفع بعلماء الحديث إلى ابتكار علوم جديدة لم تكن معروفة من قبل علماء الأديان والحضارات السابقة، حيث أبدع علماء الحديث علوماً كثيرة لحفظ سند الحديث ومتنه، منها علم الجرح والتعديل، وعلم مصطلح الحديث. وكل هذه العلوم غرضها الحفاظ على النص الحديثي رواية ودراية.

وهذه العلوم أكدت كلها صدق نبوءة المصطفى الكريم محمد ﷺ الواردة في الحديث النبوي الشريف: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[٣٩].

الهوامش:

(١) سورة آل عمران: ٣٢.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) سورة النساء: ٨٠.

(٤) مجلة الإسلام المعاصر، تحت عنوان: الإستعانة بالسنة النبوية في تحقيق نهضة حضارية إسلامية شاملة، د. أحمد كمال أبو المجد، ص٢٣-٢٥، مؤسسة المسلم المعاصر والمعهد العالي للفكر الإسلامي.

(٥) سورة الحجر: ٩.

(٦) سورة يونس: ١٥.

(٧) سورة يونس: ٦٤.

(٨) سورة فصلت: ٤٢/٤١.

(٩) سورة النور: ٥٤ وسورة العنكبوت: ١٨.

(١٠) سورة آل عمران: ٢٠.

(١١) سورة النحل: ٤٤.

(١٢) سورة النحل: ٦٤.

(١٣) سورة العنكبوت: ٢٠.

(١٤) سورة السجدة: ٧.

(١٥) سورة يونس: ٣٤، والأعراف: ٢٩، والأنبياء: ١٠٤، والنمل: ٦٤، والروم: ١١، ٢٧، والعنكبوت: ١٩: ١٣ .

(١٦) أخرجه البخاري في صحيحه، جزء ٢٢٢/٤ (كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قول الله تعالى: **﴿وهو الذي يبدأ الخلق..﴾**، وينظر: فتح الباري صحيح البخاري، ابن حجر، جزء: ٨٥/١.

(١٧) أخرجه البخاري في صحيحه، جزء: ٢٢٢/٤ (كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قول الله تعالى: **﴿وهو الذي يبدأ الخلق..﴾**، ويُنظر: فتح الباري..، ابن حجر، جزء ٨٥/١.

(١٨) سورة البقرة: ٣٤، والأعراف: ١١، والإسراء: ٦١، والكهف: ٥٠، وطه: ١١٦.

(١٩) سورة المؤمنون: ١٢-١٤.

(٢٠) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، جزء ٢٣٠/٤ (كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة..)، ومسلم في صحيحه بشرح النووي، جزء ١٩٠/١٦ (كتاب القدر (١) باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه..)، وأبو داود في سننه، رقم (٤٧٠٨) والترمذي في سننه، رقم (٢١٣٨).

(٢١) الوافي في شرح الأربعين النووية، د. مصطفى البغا ومحيى الدين سسو، ص٢٥.

(٢٢) سورة الكهف: ٨٣-٨٤.

(٢٣) سورة الأنبياء: ٤٨.

(٢٤) رواه البخاري عن أبي هريرة وأخرجه في صحيحه، جزء ١٢٩/١-١٣٠ (كتاب الغسل: باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة...)، والنسائي في سننه، جزء: ١٦٥/١، وأحمد في مسنده، جزء ٣١٤/٢.

(٢٥) سورة الحديد: ٩.

(٢٦) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٢٧) السيرة النبوية، لابن هشام، جزء: ٣ و٤، وفقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، ص: ٢٣٣-٢٤٧، ومحاولة لبناء منهج إسلامي متكامل، أنور الجندي، جزء: ٢، ص١٣ وما بعدها.

(٢٨) سورة الجمعة: ٩-١٠.

(٢٩) سورة التوبة: ١٠٥.

(٣٠) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه في مسنده، جزء: ١٣٦/٣، وينظر: الجامع الصغير.. للإمام السيوطي، جزء ٢٩٦/١، وصحيح الترغيب والترهيب، للمنذري، ص: ٢٣٠.

(٣١) روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أخرجه الإمام أحمد في المسند، جزء ١٢٧/٣، وينظر: الجامع الصغير.. للإمام السيوطي، جزء ٢٦٦/١.

(٣٢) سورة الأنعام: ٢٩/٣٠.

(٣٣) سورة التغابن: ٧.

(٣٤) سورة آل عمران: ٦٦.

(٣٥) سورة سبأ: ٢٨.

(٣٦) المسبل؛ بضم الميم وسكون السين وكسر الباء: المرخي إزاره، الجار طرفه كبرا وخيلاء، كما شرحه الإمام النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، جزء: ١١٤/٢.

(٣٧) رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري، وأخرجه في صحيحه بشرح النووي، جزء ١١٤/٢ (كتاب الإيمان، (٤٦) باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية..)، وينظر: دليل الراغبين..، د. فاروق حمادة، ص٤٣٢ و٧٦٦، وكيف نتعامل مع السنة..، د. يوسف القرضاوي، ص: ١٠٥ و١٠٦.

(٣٨) روي عن أبي سعيد الخدري، أخرجه البخاري في صحيحه جزء: ٢٠/١ (كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان..)، وينظر: اللؤلؤ والمرجان..، جزء: ٤٧/١، والأحاديث القدسية، دار الكتب العلمية، جزء ٣٩٢/٢.

(٣٩) قد تم بيان هذا الحديث في مقدمة البحث.